

الصلة بين الفرق القديمة والمعاصرة

الشيعة نموذجاً

أ. د. ناصر القفاري
n0380@hotmail.com
@prof_algefari

أعني بالفرق هنا: الفرق الإسلامية أو الفرق المنتسبة إلى الإسلام في الظاهر وليست منه في الحقيقة. والمراجع لمصادر الملل والنحل يجد أسماء عدد كبير من الفرق قد اندثر وجودها، وأصبحت أثراً بعد عين، ويجد منها ما بقي واستمر، ومنها ما تغير وتطور.

ويمكن تقسيم الفرق من حيث بقاؤها وانقراضها عقيدة واسماً إلى ما يلي:

أولاً: فرق انقرضت اسماً وبقيت عقيدة: كالسبئية، فإنها وإن انقرض اسمها إلا إن الإثنى عشرية الرافضة ورثت عقائدها الغالية، وكالمعتزلة فإنها وإن اختفى اسمها إلا إن عقائدها لا تزال باقية في بعض الفرق، فقد ورثت الزيدية والإثنى عشرية والإباضية كثيراً من عقائد المعتزلة، وكذلك المرجئة والجهمية والقدرية، فهذه الفرق وإن اختفت أسماؤها إلا أنه نشأت فرق أخرى ورثت عقائدها، وتبنت آراءها.

ثانياً: فرق انقرضت عقيدة واسماً: مثل الكيسانية أتباع محمد بن الحنفية فقد ذكر ابن خلدون أن شيعة محمد بن الحنفية كانت أكثر شيعة أهل البيت - أي: في عصرها - ثم لم تلبث أن تقلص أتباعها حتى اختفت[1]، وكذلك الفطحية أتباع عبد الله بن جعفر بن محمد الصادق، وهو أكبر أولاد الصادق[2]، قال صاحب الزينة (أبو حاتم الرازي الإسماعيلي المتوفى سنة ٣٢٢هـ): «قد انقرضت هذه الفرقة فليس أحد يقول بهذا القول»[3]. وكذلك الكاملية الذين كفروا علياً - رضي الله عنه - لأنه ترك منازعة الصحابة ومنعهم من مبايعة أبي بكر، وكفروا سائر الصحابة؛ لأنهم لم يسلموا الإمامة لعلي[4]، ومثلها الغرابية التي قالت: إن محمداً ﷺ كان أشبه بعلي من الغراب بالغراب، وأن الله عز وجل بعث جبريل - عليه السلام - بالوحي إلى عليٍّ فغلط جبريل وأنزل الوحي على محمد ﷺ[5][6]، وكالهشامية أتباع هشام بن الحكم القائلين بالتجسيم، وكغلاة القدرية نفاة العلم، فقد ذكر غير واحد من أهل العلم أنهم انقرضوا ولم يعد لهم وجود، ولا يعرف أحد ينسب إليها من المتأخرين[7].

ثالثاً: فرق انقرضت عقيدة وبقيت اسماً: كالشيعة الأولى المفضلة الذين يفضلون علياً على عثمان، مع تقديمهم للشيخين أبي بكر وعمر، فقد اختفى الاسم المعبر عن هذه الطائفة، وأصبح لقب الشيعة إذا أطلق ينصرف إلى غلاة الرافضة، ذلك أن الشيعة الأولى لما رأوا الغلاة قد انتحلوا هذا اللقب تركوه واكتفوا باسم السنة والجماعة، كما يشير صاحب التحفة الإثنى عشرية إلى ذلك فيقول: «إن الشيعة الأولى تركوا اسم الشيعة لما صار لقباً للروافض والإسماعيلية، ولقبوا أنفسهم بأهل السنة والجماعة»[8]. وأما عقيدتهم فقد اختفت وانقرضت بعد أن استقر مذهب أهل السنة والجماعة على تقديم عثمان على علي - رضي الله عنهما -، «وقد روي عن أبي حنيفة تقديم علي على عثمان، ولكن ظاهر مذهبه تقديم عثمان، وعلى هذا عامة أهل السنة»[9].

رابعاً: فرق بقيت اسماً وعقيدة: وذلك مثل الخوارج، والإثنى عشرية، والإسماعيلية، والزيدية.

كثرة فرق الشيعة:

المراجع أيضاً لكتب الفرق والمقالات يجد كماً هائلاً من أسماء الفرق المنتسبة للتشيع التي لم يعد لأسمائها وجود اليوم، حتى تفردت الشيعة بكثرة فرقها بحيث لا يشابهها ولا يقاربها فرقة أخرى، حتى صار هذا الافتراق محل الشكوى من الشيعة أنفسهم[10]، فقد بلغت فرق الشيعة في عصر المسعودي المتوفى سنة ٣٤٦هـ ثلاثاً وسبعين فرقة[11]، فكيف الحال بعده؟! وكل فرقة تكفر الأخرى، ولهذا زعم الرافضي مير باقر الداماد المتوفى سنة ١٠٤٠هـ أن الفرق المذكورة في حديث افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة هي فرق الشيعة، وأن الناجية منها هي طائفته الإمامية[12]، وأما أهل

(١) تاريخ ابن خلدون: ٣/ ١٧٢.

(٢) وسموا الفطحية؛ لأن عبد الله كان أفطح الرأس، كما يدعون بالعمارية نسبة إلى رئيس لهم يعرف بعمار، وقد قال النوبختي إنه مال إلى هذه الفرقة جل مشايخ الشيعة وفقهائها، ولكن عبد الله لم يعش بعد وفاة أبيه سوى سبعين يوماً فرجعوا عن القول بإمامته (انظر: مسائل الإمامة ص٤٦، فرق الشيعة للنوبختي ص٧٧-٧٨، مقالات الإسلاميين ١/ ١٠٢، الحور العين ص١٦٣-١٦٤).

(٣) الزينة: ص٢٨٧.

(٤) انظر: مسائل الإمامة: ص٤٥، المقالات والفرق: ص١٤، مقالات الإسلاميين: ١/ ٨٩، الفرق بين الفرق: ص٥٤، الملل والنحل: ١/ ١٧٤.

(٥) انظر: الفصل: ٥/ ٤٢، الفرق بين الفرق ص٢٥٠، التبصير في الدين: ص٧٤، المنية والأمل ص٣٠، التنبيه والرد ص١٥٨، وسماها «الجمهورية».

(٦) ربما جاء في كتب الإثنى عشرية ما يعبر عن مذهبها بألفاظ مختلفة، فقد جاء في طائفة من مصادر الشيعة المعتمدة لديهم أن رسول الله - صلى الله عليه وآله - قال: «إن الله أنزل عليَّ القرآن وهو الذي من خالفه ضل، ومن يبتغي علمه عند غير علي هلك» (وسائل الشيعة: ١٨/ ١٣٨، وانظر: بحار الأنوار: ٧/ ٣٠٢، ١٩/ ٢٣، الطبري (الرافضي)/ بشارة المصطفى ص١٦، أمالي الصدوق ص٤٠). فما الفرق بين مقالة الغرابية، ونص الإثنى عشرية؟! إن الإثنى عشرية أعطوا علياً الرسالة بدون دعوى الغلط، وزعموا أن رسالة النبي هي التعريف بعليٍّ فقط!

(٧) انظر: فتح الباري (١/ ١١٩).

(٨) التحفة الإثنى عشرية: ص٢٥-٢٦ (مخطوط).

(٩) شرح الطحاوية: ٢/ ٧٢٧.

(١٠) انظر: أصول الكافي: ١/ ٦٥.

(١١) مروج الذهب: ٣/ ٢٢١.

(١٢) جمال الدين الأفغاني، التعليقات على شروح الدوّاني للعقائد العضدية (ضمن كتاب الأعمال الكاملة للأفغاني، دراسة وتحقيق: محمد عمارة: ١/ ٢١٥)، وقد نسب رشيد رضا هذا الكتاب لمحمد عبده (تفسير المنار: ٨/ ٢٢١)، لكن حقق محمد عمارة أنه للأفغاني (انظر: محمد عمارة، الأعمال الكاملة للأفغاني: ١/ ١٥٥-١٥٦، الأعمال الكاملة، لمحمد عبده: ١/ ٢٠٩).

السنة والمعتزلة وغيرهم من سائر الفرق فجعلهم من أمة الدعوة، أي ليسوا من أمة الإجابة، فهم في اعتقاده لم يدخلوا في الإسلام، وهذه المقالة قد قالها الشيعة من قبل، وأشار إلى ذلك الشهرستاني حيث قال: «إن الإمامية لم يثبتوا في تعيين الأئمة بعد الحسن، والحسين، وعلي بن الحسين - رضي الله عنهم - على رأي واحد، بل اختلافاتهم أكثر من اختلافات الفرق كلها، حتى قال بعضهم: إن نيِّفاً وسبعين فرقة من الفرق المذكورة في الخبر هو في الشيعة خاصة، ومن عداهم فهم خارجون عن الأمة»[(١)]، وقال الرازي: «بعض الروافض قد صنف كتاباً وذكر فيه ثلاثاً وسبعين فرقة من الإمامية»[(٢)].

وقد ورد في دائرة المعارف أنه ظهر من فروع الفرق الشيعية ما يزيد كثيراً عن الفرق الاثنتين والسبعين المشهورة[(٣)]، وفي عصر المقريزي (المتوفى ٨٤٥هـ) بلغت فرق الشيعة - كما يذكر - ثلاثمائة فرقة[(٤)].

الصلة بين فرق الشيعة:

وبعد انتشار مصادر الشيعة تبينت حقيقة غائبة وخفية لم تكن معلومة من قبل، وهي أن هذه الفرق وإن اختفت أسماؤها فقد بقيت عقائدها في مصادر التلقي لدى الإثنى عشرية.

وهذه المصادر - ومن خلال القراءة الطويلة فيها - قد استوعبت آراء فرق الشيعة خلال القرون، ومن يقارن بين ما جاء في كتب الإثنى عشرية من معتقدات وبين آراء ومعتقدات فرق الشيعة الأخرى في كتب الفرق وغيرها سيرى أنه ما من رأي أو عقيدة نادت بها طائفة من الفرق الشيعية في حقب التاريخ المختلفة إلا ونجد لها - في الغالب - شاهداً ودليلاً في كتب الإثنى عشرية، بل ربما يصل القارئ إلى نتيجة مثيرة، وهي أن ذلك التقسيم الكثير للشيعة وذكر طوائفها المتعددة قد أصبح اليوم في الغالب صورة لا حقيقة لها، وهي لا تعني اتفاقهم فيما بينهم، ولكن لأن طائفة الإثنى عشرية قد استوعبت تلك الآراء والعقائد، كما حاولت أن تحتوي فرق الغلو لتجنيدها سياسياً وعسكرياً في صفوفها من أجل تحقيق أهدافها. وهذه حقيقة لم تكن واضحة قديماً

(١) الملل والنحل: ١/ ١٦٥.
(٢) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين: ص٥٦.
(٣) دائرة المعارف الإسلامية: ١٤/ ٦٧.
(٤) الخطط: ٢/ ٣١٥.

كما هي اليوم، خاصة بعد انتشار كتب الإثنى عشرية، وقيام دولتهم الخمينية، والتقارب السياسي مع غلاة الغلاة من الزنادقة النصيرية وغيرهم. وإن دراسة مقارنة لآراء تلك الفرق، وما جاء في كتب الإثنى عشرية لهي دراسة تكشف حقائق مهمة، وربما تستحق أن تفرد بدراسة مستقلة، لكن يكفي ذكر أمثلة لها لنرى على أي شيء استقر مركب الإثنى عشرية:

الصلة بين الباطنية والإثنى عشرية:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وكذلك - أي في الحكم بالتكفير - من زعم أن القرآن نقص منه آيات وكتمت...» ثم بين أن هذا مذهب القرامطة والباطنية[(٥)]. هذا الكفر البواح الذي نسبه ابن تيمية للباطنية القرامطة نجده ثابتاً، بل مستفيضاً في دواوين الشيعة الإثنى عشرية ومصادرهم المعتمدة ويجاهر به جملة من شيوخهم، بل انفردت الشيعة الإثنى عشرية من بين سائر الفرق بالمجاهرة بفرية تحريف القرآن. فقد امتلأت مصادر الإثنى عشرية بأساطيرهم التي يسمونها أحاديث[(٦)]، والتي تقول بنقص القرآن وتحريفه، حتى زعم بعض شيوخهم كالمفيد في «أوائل المقالات»، والمجلسي في «مرآة العقول»، والمازندراني في «شرحه للكافي» وغيرهم أن الأحاديث التي تقول بنقص القرآن وتحريفه متواترة من طرقهم.

وشهد شاهد منهم[(٧)] بأنها بلغت أكثر من ألفي حديث، وأقر علماء الشيعة بأنه مذهب لكبار علمائهم كالكليني، وشيخه القمي، والطبرسي صاحب «الاحتجاج»، والمجلسي صاحب «البحار» وغيرهم.

إن كتب الإثنى عشرية التي تضمنت القول بنقص القرآن وتحريفه، كان منها ما هو قبل ابن تيمية بقرون مثل «الكافي» للكليني (ت ٣٢٩هـ) وتفسير إبراهيم القمي شيخ الكليني وغيرهما؛ فهل ابن تيمية وغيره من علماء الفرق والمقالات لم يقفوا على هذه المصادر لأنها كانت سرية التداول بين

(٥) الصارم المسلول: ص٥٨٦.
(٦) هي مجرد أساطير مكذوبة مفتراة نسبها زنادقة القرون البائدة إلى أئمة آل البيت لتروج على أتباعهم، وسموها أحاديث تلبيساً وتضليلاً.
(٧) هو شيخهم نعمة الله الجزائري الذي وصفوه بأنه السيد السند، والركن المعتمد، المحدث النبيه، المحقق، النحرير، المدقق العزيز النظير، وقالوا بأنه من أكابر متأخري علماء الإمامية، محدث جليل القدر، ومحقق عظيم الشأن، إلى آخر أوصافهم، توفي سنة ١١١٢هـ (انظر: أمل الآمل: ٢/ ٣٣٦، الكنى والألقاب: ٣/ ٢٩٨، سفينة البحار: ٢/ ٦٠١، مقدمة الأنوار النعمانية).

الشـيعة؟ أم أن تلـك الآراء الشـاذة أضيفت إليها فيما بعد؟ أم أن علماء السـنة لم يهتموا بالاطلاع على كتبهم لكذبهم؟ على أية حال إن ما ينسبه ابن تيميـة للقرامطة الباطنية متواتـر في كتب الإثنى عشرية.

أفـلا يحـق لنا القـول بعـد ذلك بـأن مقالة القرامطة الباطنيـة قد رددتها وانتصرت لها كتب الإثنـى عشـرية؟ أم هم الباطنية نفسـها؟ لأننا لا نجـد هـذه المقالة مسـتفيضة عند الإسـماعيلية كمـا هي عنـد الإثنى عشـرية، فشـيعة اليوم هم باطنيـة فـي حقيقة الأمـر، ويصـدق عليهم قول الشهرسـتاني: «لهم دعـوة في كل زمـان، ومقالة جديـدة بـكل لسـان»[١]، ويؤيد ذلك مـا جاء في مصادرهم من أن هذا الافتراق بينهم أمر مقصود للتستر على عقيدتهم وإخفاء حقيقتهم، وهذا حق اعترف به الشـيعة أنفسهم، حيث جاء في «أصول الكافـي»: عن زرارة بن أعـين عن أبي جعفر قال: سألته عن مسـألة فأجابني، ثم جاءه رجل فسأله عنهـا، فأجابه بخلاف ما أجابنـي، ثم جاءه رجل آخر فأجابه بخلاف مـا أجابني وأجاب صاحبي، فلما خرج الرجلان قلت: يا ابن رسول الله، رجلان من أهل العراق من شـيعتكم قدما يسألان فأجبت كل واحـد منهما بغير ما أجبت به صاحبه؟ فقال: «يا زرارة، إن هذا خير لنا ولكم، ولو اجتمعتم على أمر واحد لصدقكم الناس علينا، ولكان أقلَّ لبقائنا وبقائكـم»[٢]. قال المازندراني: «أي: ولكان اتفاقكم فـي الروايـة عنـا أو تصديقهـم لكم فيها سـبباً لقلـة بقائنا وبقائكم؛ لأنه موجب لسـرعة هلاكنا وهلاككـم، بخـلاف مـا إذا اختلفتم فـي الرواية عنا، فإنهـم لا يصدقونكم علينا ولا يعتقدون أنكم موالينـا، وفي ذلك بقـاء لنا ولكـم»[٣]؛ ولهذا قال شـيخ الإسـلام ابن تيمية رحمه الله: «الشيعة ليس لهم قول واحد يتفقون عليه»[٤].

(١) الملل والنحل: ١/ ١٩٢.
(٢) أصول الكافي: ١/ ٦٥.
(٣) شرح أصول الكافي: ٢/ ٣٢٩.
(٤) منهاج السنة: ٢/ ١٢٩.



إحياء عقائد السبئية:

ظهرت النزعة السبئية التي تضفي صفات الإله على الأئمة واضحة جلية من خلال أحاديث الإثنى عشرية، فالأئمة يعلمون ما كان وما يكون ولا يخفى عليهم شيء، ولا يسهون ولا ينسون ولا يخطئـون مطلقاً، إلى آخر قائمـة الأوصاف التي يجعلونها للأئمة التي هي من خصائص الجبار جل علاه[٥]، حتى عقدوا أبوابـاً في مصـادر التلقي المعتمدة لديهم لتأسـيس هذا الغلو وضمنوها طائفة من أسـاطيرهم التي نسبوها كذباً وزوراً إلى بعض أئمة آل البيت لتروج عند أتباعهم.

يقول أحد المعاصرين[٦] من آياتهم التي ينسـبونها زوراً إلى الله سـبحانه، مشطراً أبيات سيده حسـين القزويني في مدح علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -:

أبـا حسـن أنـت عـين الإلـه
وعـنـوان قـدرتـه السـامـية
وأنـت المحـيـط بـعـلم الـغـيـوب
فـهـل عـنـدك تـعـزب مـن خـافـية؟
وأنـت مـدبـر رحـى الـكـائـنات
وعـلـة إيـجـادهـا الـبـاقـية
لـك الأمـر إن شـئـت تـنـجـي غـداً
وإن شـئـت تـسـفـع بـالـنـاصـيـة[٧]

(٥) انظر: «شيعة اليوم سبئية الأمس» (منشور بمجلة البيان).
(٦) هو عبد الحسين بن الشيخ إبراهيم بن الشيخ صادق بن الشيخ يحيى العاملي.
(٧) ديوان الحسين: الجزء الأول من القسم الثاني الخاص في الأدب العربي، ص٤٨.

إحياء عقيدة البداء:

عقيدة البداء من عقائد الغلاة[1] ونسبوها للمختارية[2] وهم من الغلاة، فالبداء في اللغة له معنيان: الأول: الظهور والانكشاف، والثاني: نشأة الرأي الجديد، وكلا المعنيين ورد في القرآن، فمن الأول قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، ومن الثاني قوله: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [يوسف: ٣٥]. والبداء بهذين المعنيين لا تجوز نسبته إلى الله عز وجل، والبداء في الأصل عقيدة يهودية ضالة، وقد وردت في التوراة - التي حرفها اليهود وفق ما شاءت أهواؤهم - نصوص صريحة تتضمن نسبة معنى البداء إلى الله سبحانه[3].

ومع ذلك فقد ورد في صحيحهم «الكافي» ستة عشر حديثاً في كتاب البداء، وفي «البحار» في باب سماه البداء والنسخ أكثر من سبعين حديثاً من أحاديثهم[4]، وصار البداء من عقائد الإثنى عشرية الثابتة في مصادرهم ورواياتهم، وقالوا: «ما عبد الله بشيء مثل البداء»[5]، «وما بعث الله نبياً قط إلا بتحريم الخمر وأن يقر لله بالبداء»[6]، «ولو علم الناس ما في القول بالبداء من الأجر ما فتروا عن الكلام فيه»[7].

(١) انظر: الشهرستاني: الملل والنحل (١/ ١٧٣).

(٢) المختارية: أتباع المختار بن أبي عبيد الثقفي، ومن مذهبه أنه يقول بالبداء على الله تعالى. «الملل والنحل»: (١/ ١٤٧- ١٤٨).

(٣) برغم أن المشهور عن اليهود أنهم ينكرون النسخ لأنه يستلزم البداء. انظر: «مسائل الإمامة»: ص٧٥ و«مناهل العرفان»: (٢/ ٧٨). ومع ذلك فقد جاء في التوراة: «ورأى الرب أن شر الناس قد كثر على الأرض، وأن كل تصور أفكار قلوبهم إنما هو شر في جميع الأيام. فندم الرب أنه عمل الإنسان على الأرض وتأسف في قلبه، فقال الرب: أمحو الإنسان الذي خلقت عن وجه الأرض، الإنسان مع البهائم والدبابات وطير السماء لأني ندمت على خلقي لهم». «الكتاب المقدس» الفصل السادس من تكوين التوراة: ص١٢.

(٤) المراد بأحاديثهم ما ينسبونه إلى أئمتهم الاثني عشر من أقوال، وقليل منها ينسبونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونحن نبرئ أهل البيت مما ينسبونه إليهم من افتراءات وأكاذيب.

(٥) «الكافي»، كتاب التوحيد، باب البداء: (١/ ١٤٦).

(٦) المصدر السابق: (١/ ١٤٨).

(٧) المصدر السابق: (١/ ١٤٨).

إحياء عقيدة الرجعة:

عقيدة الرجعة[8] عدوها من عقائد الغلاة[9]، حتى ذكر ابن حجر أنها آخر مرتبة في الغلو[10]، وقد ذكرت كتب الشيعة[11] والسنة[12] أنها من أصول عقائد ابن سبأ اليهودي، ومع ذلك فهي من أصول عقائد الإمامية، فمن رواياتهم: «ليس منا من لم يؤمن بكرتنا»[13]، وقال ابن بابويه في الاعتقادات: «اعتقادنا في الرجعة أنها حق»[14]، وقال المفيد: «اتفقت الإمامية على وجوب رجعة كثير من الأموات»[15]، وقال الطبرسي والحر العاملي وغيرهما من شيوخ الرافضة إنها موضع إجماع الشيعة الإمامية[16]، وإنها من ضروريات مذهبهم[17].

تفضيل الأئمة على الأنبياء:

قرر أهل العلم أن القول بتفضيل الأئمة على الأنبياء هو مذهب غلاة الروافض، كما أثبت ذلك الإمام عبد القاهر البغدادي[18] (ت ٤٢٩هـ) والقاضي عياض (ت ٥٤٤هـ)، ورأى أن هذا من أسباب كفرهم فقال: «ونقطع بتكفير غلاة الرافضة في قولهم: إن الأئمة أفضل من الأنبياء»[19]، وشيخ الإسلام ابن تيمية[20] (ت ٧٢٨هـ)، ونقل بعض أهل العلم «إجماع المسلمين على كفر من ذهب إلى هذا القول»[21].

ومع ذلك فهي من عقائد الإثنى عشرية الأساسية، وفي كتب حديثهم عقدوا لها باباً خاصاً، كما ألف شيوخهم في إثباتها مؤلفات مستقلة[22]؛ فهم بهذا من غلاة الروافض.

(٨) هي عندهم: «رجعة كثير من الأموات إلى الدنيا قبل يوم القيامة، وعودتهم إلى الحياة بعد الموت، قبل ذلك اليوم الموعود يرجعون في صورهم التي كانوا عليها» (انظر: أوائل المقالات: ص٥١، ٩٥، الإيقاظ من الهجعة بالبرهان على الرجعة: ص٢٩).

(٩) «الملل والنحل»: (١/ ١٧٣).

(١٠) «هدي الساري مقدمة فتح الباري»: ص٤٥٩.

(١١) سعد القمي: ص٢٠- ٢١، النوبختي: «فرق الشيعة»: ص١٩.

(١٢) البغدادي: «الفرق بين الفرق»: ص٢٣٣- ٢٣٤.

(١٣) من لا يحضره الفقيه: ٣/ ٢٩١، وسائل الشيعة ٧/ ٤٣٨، تفسير الصافي ١/ ٣٤٧، بحار الأنوار: ٥٣/ ٩٢.

(١٤) الاعتقادات: ص٩٠.

(١٥) أوائل المقالات: ص٥١.

(١٦) الطبرسي/ مجمع البيان: ٥/ ٢٥٢، الحر العاملي/ الإيقاظ من الهجعة: ص٣٣، الحويزي/ نور الثقلين: ٤/ ١٠١، المجلسي/ بحار الأنوار: ٥٣/ ١٢٣ (وقد ذكر المجلسي أنهم أجمعوا على القول بها في جميع الأعصار).

(١٧) الإيقاظ من الهجعة: ص٦٠.

(١٨) «أصول الدين»: ص٢٩٨.

(١٩) «الشفا»: ص٢٩٠.

(٢٠) «منهاج السنّة»: (١/ ١٧٧) الطبعة الأولى.

(٢١) «الرد على الرافضة»: ص٢٩.

(٢٢) مثال كتاب: «تفضيل علي على أولي العزم من الرسل» لشيخهم هاشم بن إسماعيل البحراني (ت ١١٠٧هـ)، و«تفضيل الأئمة - عليهم السلام - على الأنبياء عدا نبينا - صلى الله عليه وآله وسلم» للمؤلف السابق ذكره، و«تفضيل أمير المؤمنين على من عدا خاتم النبيين» لشيخهم محمد باقر المجلسي (ت ١١١١هـ)، و«تفضيل أمير المؤمنين على غير النبي - صلى الله عليه وآله وسلم» لسيدهم محمد النقوي اللكهنوي (ت ١٢٨٤هـ) وغيرها. انظر: «الذريعة إلى تصانيف الشيعة»: (٤/ ٣٥٨- ٣٦٠)، «لؤلؤة البحرين»: ص٦٤، ويقول شيخهم نعمة الله الجزائري (ت ١١١٢هـ): «هذا مذهب أكثر متأخري الإمامية، وهو الصواب». انظر: «الأنوار النعمانية»: (١/ ٢٠- ٢١)، وهذا المذهب هو الذي اعتمده شيخ الشيعة المعاصرين الخميني. انظر: «الحكومة الإسلامية»: ص٥٢.



التشيع الإثنى عشري مجمع عقائد الفرق الغالية

وبهذا يتبين جمع الإثنى عشرية في مصادرها لعقائد الغلاة من أهل الفرق البائدة، وقد رأيت بعض الشيعة المعاصرين أشار إلى هذا الرأي، فقال: «يجب أن نشير قبل أن نضع القلم بأن ما مر بنا من أفكار الشيعة مما كان خاصاً بفرقة بعينها لم يلبث أن دخل كله في التشيع الإثنى عشري ودعم بالحجج العقلية وبالنصوص، والتشيع الحالي إنما هو زبدة الحركات الشيعية كلها من عمَّار[1] إلى حُجر بن عدي إلى المختار وكيسان إلى محمد بن الحنفية وأبي هاشم إلى بيان بن سمعان، والغلاة الكوفيين إلى الغلاة من أنصار عبد الله بن الحارث إلى الزيديين والإسماعيليين، ثم الإمامية التي صارت إثنى عشرية، وقام بعملية المزج متكلمو الشيعة ومصنفوها»[2].

إذن كتب الإثنى عشرية الأساسية هي الدَّنُّ الذي امتزجت فيه كل الانحرافات الشيعية، واستقر بنيان التشيع الإثنى عشري على الأصول العامة للتشيع مهما كان غلوها وتطرفها.

من هنا رأى البعض أن «أصول مذهب الغلاة والمفوضة والباطنية من الإسماعيلية والإمامية الإثنى عشرية مختلطة بعضها ببعض في كثير من المسائل، ولذلك قيل: الإمامية دهليز الباطنية»[3].

وقد جاء في دائرة المعارف عن انفتاح الإثنى عشرية على الغلاة هذا القول: «على أن الحدود لم تقفل تماماً أمام الغلاة، يدل على ذلك التقدير الذي دام طويلاً للكتاب الأكبر للإسماعيلية وهو كتاب (دعائم الإسلام)»[4].

ومثل الإسماعيلية فرق أخرى بقيت أو اندرست كلها دخلت معتقداتها في مدونات الإثنى عشرية[5].

وقد اعترف شيخهم الطوسي الملقب عندهم بشيخ الطائفة أن معظم رجالهم في الحديث من أصحاب المذاهب الفاسدة، ومع ذلك قال: «إن كتبهم معتمدة»[6].

ومن هنا فإن بعض شيوخ الإثنى عشرية وآياتها إذا تحدثوا عن طائفتهم ورجالها ودولها نسبوا لها كل الفرق والدول والرجال المنتمين للتشيع، وإن كانوا من الإسماعيلية والباطنية أو من الزنادقة الدهرية أو من المجسمة الغلاة.فهم إذا تحدثوا - مثلاً - عن دول الشيعة ذكروا الدولة العبيدية في صدر دولهم مع أنها ليست إثنى عشرية[7]، وإذا جاء ذكر رجالهم رأيت منهم كثيراً

(١) هذا بناء على اعتقاده أن عماراً وبعض الصحابة كانوا نواة للتشيع، وهو رأي ظاهر الفساد.

(٢) مصطفى الشيبي: «الصلة بين التصوف والتشيع»: ص٢٣٥.

(٣) محمد بن الحسن الديلمي (من علماء القرن الثامن الهجري) «قواعد آل محمد»: ص١١.

(٤) «دائرة المعارف الإسلامية»: (١٤/ ٧٢).

(٥) انظر: «شيعة اليوم باطنية الأمس» (منشور بمجلة البيان).

(٦) «الفهرست»: (ص ٢٤-٢٥).

(٧) انظر: «الشيعة في الميزان» مبحث دول الشيعة: ص١٢٧ وما بعدها، وانظر: «أعيان الشيعة»: (١/ ٤٤، ٤٥)، وانظر: «دول الشيعة» لمحمد جواد مغنية.

مــن رؤوس الضلال والزندقة ممن تنسب إليهم فرق ليست من الإثنى عشرية؛ لهذا نرى – مثلاً – مرجع الشيعة المعاصر محسن الأمين يقول عن الهشامية[1] أتباع هشام بن الحكم، واليونسية أتباع يونس بن عبد الرحمن القمي[2]، والشيطانية أتباع محمد بن النعمان (شيطان الطاق)[3] وغيرها «أنهم عند الشيعة الإمامية كلهم ثقات صحيحو العقيدة، فكلهم إمامية وإثنى عشرية»[4].

ومن منطلق استيعاب الإثنى عشرية لآراء الفرق الأخرى نرى بعض الشيعة الإثنى عشرية المعاصرين يضفي التشيع على بعض الغلاة الكفرة كالنصيرية، فقد كتب أحد علماء الشيعة الإثنى عشرية المعاصرين وهو المدعو حسن الشيرازي رسالة سماها: «العلويون شيعة أهل البيت» (العلويون لقب للنصيرية) وذكر في رسالته هذه أنه التقى بالنصيريين في سوريا ولبنان وذلك بأمر من مرجعهم الديني محمد الشيرازي (أخو حسن)، وقال إنه وجدهم كما يظن من شيعة أهل البيت الذين يتمتعون بصفاء الإخلاص وبراءة الالتزام بالحق وينتمون إلى علي بن أبي طالب بالولاية وبعضهم ينتمي إليه بالولاية والنسب.. وقال: إن العلويين والشيعة كلمتان مترادفتان مثل كلمتي الإمامية والجعفرية[5]، هذا ولم ينكر على هذا الشيرازي أحد من علماء الإثنى عشرية مع أنه قد عرف واشتهر عن النصيرية الكفر والزندقة[6]، بل كتب الشيعة القديمة

(١) هذه الطائفة جمعت بين ضلالها في الإمامة ضلالة التشبيه والتجسيم حتى قال الإسفراييني: «أنهم أفصحوا في التشبيه بما هو كفر محض باتفاق المسلمين» «التبصير» ص٤٣-٤٤. وانظر: الأشعري: «مقالات الإسلاميين»: (١/ ١٠٦ – ١٠٧)، عبد القاهر البغدادي: «الفرق بين الفرق»: جـ ٦٥.

(٢) كان في الإمامة على مذهب القطعية الذين قطعوا بموت موسى بن جعفر، وكان مفرطاً في باب التشبيه. انظر: الأشعري: «مقالات الإسلاميين»: (١/ ١٠٦)، البغدادي: «الفرق بين الفرق»: ٧٠.

(٣) الشيعة تسميه مؤمن الطاق وله وطائفته ضلال شنيع في الإمامة، والقدر والتشبيه، وكان في الإمامة على مذهب القطعية، أي ليس بإثنى عشري. البغدادي: «الفرق بين الفرق»: ص٧١، الشهرستاني، «الملل والنحل»: (١/ ١٨٦ – ١٨٧)، الإسفراييني: «التبصير»: ص٤٣.

(٤) «أعيان الشيعة»: (١/ ٢١).

(٥) حسن الشيرازي: «العلويون شيعة أهل البيت»: ص٢ – ٣.

(٦) انظر: ابن تيمية: «الفتاوى»: (٣٥/ ١٤٥) وما بعدها.

نفسها تحكم عليهم بالكفر[7]، حتى بلغ الأمر اليوم أنهم يساندون النصيرية بالمال والسلاح والرجال لإبادة أهل السنة في الشام.

هـذا التطور العقدي عند الإثنى عشرية باتجاه الغلو يؤكده أحد مراجع الشيعة المعاصرين وهو عبد الله المقاني[8] – الذي يعدونه من كبار علمائهم المعاصرين في علم الرجال – يقول في معرض دفاعه عن المفضل بن عمرو الجعفي فيما رمي به من الغلو من قبل بعض الرافضة القدماء: «إنا قد بينا غير مرة أن رمي القدماء الرجلَ بالغلو لا يُعتمد عليه ولا يُركن إليه، لوضوح كون القول بأدنى مراتب فضائلهم – يعني الأئمة – غلواً عند القدماء، وكون ما نعده اليوم من ضروريات مذهب التشيع غلواً عند هؤلاء، وكفاك في ذلك عد الصدوق نفي السهو عنهم غلواً مع أنه اليوم من ضروريات المذهب، وكذلك إثبات قدرتهم على العلم بما يأتي – أي علم الغيب – بتوسط جبرائيل والنبي غلواً عندهم وهو من ضروريات المذهب اليوم»[9]. فهذا المقاني يعترف بالتطور العقدي عندهم، ويحكم بأن ما كان يعد غلواً في عرف الشيعة المتقدمين، مثل أن الأئمة يعلمون الغيب ولا يسهون، هو اليوم من ضروريات مذهب التشيع.

ومن خلال هذا التوجه العام فإن شيخ الشيعة المعاصر محمد حسين آل كاشف الغطا يحكم على جميع فرق الشيعة الموجودة اليوم بعدم الغلو، ويزعم أن جميع الفرق الغالية قد بادت ولا يوجد منها اليوم نافخ ضرمة[10]، وقال الدكتور سليمان دنيا – معلقاً على قول آل كاشف الغطا هذا – قال: «فما يكون الأغاخانية؟ أليسوا قائلين بالحلول؟! أوَليسوا مع قولهم بالحلول ملاحدة؟! أوَليسوا منتسبين إلى الشيعة؟ وأخيراً

(٧) انظر مثلاً: «البحار»: (٢٥/ ٢٨٥، ٢٨٦).

(٨) عبد الله بن محمد المقاني من كبار شيوخ الشيعة، ولد بالنجف سنة ١٢٩٠هـ، وتوفي بها سنة ١٣٥١هـ، ومن كتبه: «تنقيح المقال في علم الرجال» في ثلاثة مجلدات. «معجم المؤلفين»: (٦/ ١١٦).

(٩) «تنقيح المقال»: جـ٣ ص٢٤٠.

(١٠) انظر: «أصل الشيعة وأصولها»: ص٣٨، «دعوة التقريب»: ص٧٥.

أوليسـوا علـى رقعـة الأرض اليـوم؟»[١]. والواقـع أن أسـماء معظم تلك الفـرق قد اختفـت وبقيت آراؤها ومعتقداتها في كتب الإثنى عشرية.

وقـد تنبه لهذه الحقيقة - وهـي تطور معتقدهم نحو الغلو - الشيخ ملا علي القاري، وذلك حينما نقل قـول الإمام النووي وهـو أن «المذهب الصحيح المختار الـذي قاله الأكثرون والمحققون أن الخوارج لا يكفرون كسـائر أهل البدع»[٢]، فقال القـاري معقباً على ذلك: «قلت: وهذا في غير حق الرافضة الخارجة في زماننا، فإنهـم يعتقـدون كفر أكثر الصحابة فضلاً عن سـائر أهل السنة والجماعة، فهم كفرة بالإجماع بلا نزاع»[٣].

ولعـل هـذه الظواهر هي التي دعـت محب الدين الخطيب إلى أن يحكم بأن مدلول الدين عند الشـيعة يتطـور، ثم اسـتدل على ذلك بقول المقاني السـالف الذكر، ثم قال: «هذا تقرير علمي في أكبر كتاب وأحدثه لهـم في الجـرح والتعديل، يعترفون فيـه بأن مذهبهم الآن غيـر مذهبهم قديماً، فمـا كان يعدونه قديماً من الغلو وينبذونه وينبذون أهله بسـبب ذلك، صار الآن - أي الغلو - من ضروريات المذهب، فمذهبهم اليوم غير مذهبهم قبل الصفويين، ومذهبهم قبل الصفويين غير مذهبهـم قبل ابـن المطهر، ومذهبهم قبـل ابن المطهر غيـر مذهبهم قبل آل بويه، ومذهبهم قبل آل بويه غير مذهبهم قبل شـيطان الطاق، ومذهبهم قبل شـيطان الطاق غير مذهبهم في حياة علي والحسـن والحسين وعلي بن الحسين»[٤]. واسـتدل بكلام المقاني سالف الذكـر، ولـو كان محب الدين الخطيب حيـاً لقال: إن مذهبهم بعد ثورة الملالي غير مذهبهم قبلها، ومذهبهم قبـل ولاية الفقيـه الخمينية غير مذهبهـم بعد ولاية الفقيـه الخمينية، بل إن المذهـب بحكم مصادره ازداد شذوذاً وانحرافاً.

(١) «بين السنة والشيعة»: ص٣٧.
(٢) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ٥٠).
(٣) «مرقاة المفاتيح»: (٩/ ١٣٧).
(٤) هامش «المنتقى»: ص١٩٣.

ولا سـبيل لخلاصهـم من تلـك العقائـد الكفرية إلا بإعلانهـم البراءة من هذه المصـادر وأصحابها، أو على حد تعبير العالم الإيراني المهتدي البرقعي: كسـر هـذه الأصنام التي عبدوها مـن دون الله، والعودة إلى مصادر التلقي لدى الأمة الإسلامية.

ولعل مـن أكبر العوامل لاسـتقرار هذا المذهب علـى الغلو هو اسـتيعاب مدونـات الروافض لآراء تلك الفرق الشـاذة، وقبولهم لروايات أصحاب تلك الفرق لأنهم شـيعة، فهم مقبولـون بغض النظر عن معتقدهـم؛ فمع التشـيع لا يضر انتحـال أي نحلة! ولهذا انبثق مـن الروافض كثير من الفرق الخارجة عن الإسـلام[٥].

ونضيف حقيقة مهمة في هذا المجال وهي أنه يوجد للاتجاه الشيعي المعتدل أثر في مدونات الروافض في أحاديـث تثني على الصحابة وترفـض التقية، وتوافق المسـلمين في معتقدهم، لكـن علماء الروافض رفضوا العمل بها بحجة أنها وردت مورد التقية، في حين أنهم لا يملكـون دليلاً يؤكـدون به ذلك سـوى أنها موافقة للأمة الإسلامية، وهذا دليل عليهم لا لهم.

ولعلـه بالإمكان اسـتخلاص هذا الأثر الشـيعي المعتـدل من كتب الشـيعة ليكون شـمعة ضوء تهدي المخلصيـن فـي البحث عن الحـق، لكن ذلـك الغثاء الذي حوته كتب الشيعة هو الذي يمثل القسم الأكبر، وقد وضع الشـيعة قاعدة تقديم الأكثر على الأقل[٦]، فبقـي هذا الأكثر يشـكل العقبة الكـؤود بينهم وبين المسـلمين، فعودتهـم للأمة مقرونـة بعودتهم لمصادر التلقي لدى المسـلمين وبراءتهم من هذه المصادر التي جمعت ظلمات الكفر. نسأل الله أن يهديهم إلى الحق ويبصرهم به.

(٥) النصيرية والإسماعيلية والباطنية من بابهم دخلوا (المنتقى: ص٩)، وكذلك الشيخية والكشفية والبهائية من صميمهم خرجوا (هامش المنتقى: ص٩)، وأصبح التشيع مأوى لكل من أراد الكيد للإسلام والمسلمين.
(٦) ذلك باعتبار أن هذا الأقل ورد مورد التقية، قال المفيد: «ما خرج للتقية لا تكثر روايته عنهم كما تكثر رواية المعمول به» شرح عقائد الصدوق: ص٢٦٧، ملحق (ب) «أوائل المقالات».